

مكانة شخصية الشيخ عبد الرحمان الثعالبي في العهد العثماني

د/بعارسية صباح
أستاذة محاضرة بجامعة خبيس مليانة

شخصية الثعالبي أشهر من نار على علم، عند المسلمين عامة، والجزائريين خاصة، وسكان مدينة الجزائر على الخصوص، حتى اشتهرت المدينة عندهم ببلاد سيدي عبد الرحمان. وهذه الشخصية اشتهرت في الجزائر منذ القرن 9/15م، والقرون اللاحقة لما كان للشيخ من الصيت والشهرة، سواء عن طريق مؤلفاته، التي بلغت التسعين، أو عن طريق تلامذته ثم تلامذتهم لاشتغالهم من بعده، أو عن طريق المكانة التي تمتعت بها شخصية الثعالبي في حياته، وخاصة بعد وفاته لدى الأجيال اللاحقة.

لهذا يمكن أن نتساءل: ما مدى المكانة التي شغلها شخصية الثعالبي في الجزائر خلال الوجود العثماني؟ وكيف نفسر هذه المكانة في الجزائر وخارجها؟ سنتعرض في هذه الورقة لمكانة الثعالبي لدى الجزائريين ولدى الحكام العثمانيين. وقبل ذلك نتعرض لترجمة مختصرة للثعالبي، ولبعض مؤلفاته، مع الإشارة لأشهر تلامذته.

ترجمة الثعالبي:

اشتهر الثعالبي في القرن 9/15م، وهو القرن الذي انتشر فيه التصوف بين جميع فئات المجتمع المغربي، بما فيها فئة العلماء، خاصة الفقهاء منهم، الذين

كانوا عادوا الأفكار الصوفية في عهد المرابطين¹. لهذا امتلأ هذا القرن بعلماء متصوفة، ومتصوفة علماء؛ وعلى رأس هؤلاء الثعالبي الذي جمع بين التصوف والعلم، فحصل على احترام الجزائريين وغير الجزائريين، نتيجة لغزارة علمه ولحياته المثلى، وللبركة التي منحها حضوره لمدينة الجزائر²، حيث غطت شهرته البلاد، ودرسه العديد من أبناء الجزائر ومن غيرهم، ولا نكاد نجد كتاباً في التراجم لا يذكره، وضريحه حجة للزائرين في مدينة الجزائر لليوم³.

أما عن شخص الثعالبي فهو عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي، نسبة لقبيلة الثعالبة⁴، من كبار علماء الجزائر وصلحاتها، ولد ونشأ بناحية وادي يسر سنة 785/1384م⁵، ثم ارتحل لبجاية، حوالي سنة 802/1399م، حيث تلقى العلم على شيوخها (الناقوسي، المانجلاتي، المشدالي)، وحوالي سنة 809/1406م تحول لتونس وأخذ عن علمائها، وبعد إقامة طويلة هناك توجه للحج، مارا بمصر (817/1414م) حيث أخذ العلم عن علماءها، كما حل ببورصة بآسيا الصغرى، ثم الحجاز، حيث بقي سنتين بالمشرق، ثم عاد للجزائر عبر تونس

¹ محمود بوعيداد: جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن 9هـ/15م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 49. أنظر عن مكانة الفقهاء في عهد المرابطين، ومعاداتهم للتصوف، رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، طبعة 2، الشركة الوطنية للطبع والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 334، 335.

² H.Klein : Feuilles d'El Djazair, comité du vieil Alger fonder en 1910 par H.Klein, tome 2, Editions du Tell, Blida, 2003, p 156

³ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء 1، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص 201.

⁴ عن أصل قبيلة الثعالبة والاختلاف الموجود حول نسب الثعالبي أنظر نور الدين عبد القادر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم العصور إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب، الجزائر، 1965، ص 170، 171.

⁵ سعد الله، المرجع السابق، الجزء 1، ص 201، كذلك عبد الرزاق قسوم: عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 29. ذكر كلين أنه ولد في 1387م، أما جورج مارسى فذكر أنه ولد في 1383م. أنظر Klein : Op.Cit, tome 2, p 12 et 155.

(819هـ/1416م)، أين التقى في هذه الأخيرة بابن مرزوق الحفيد التلمساني (توفي 842هـ/1438م) سنة 820هـ/1417م، ولازمه وأخذ عنه، وأجازه بثلاث إجازات¹.

تولى الثعالبي مشيخة الجزائر والقضاء فيها لكنه تولى عنهما، مفضلاً التعليم²، وخطب بالجامع الأعظم بالجزائر. توفي بالجزائر في 23 رمضان 875هـ/منتصف مارس 1471م³.

وقد وصف سعد الله الثعالبي وصفا جامعاً لأخلاقه ولسيرته مع العباد، فقد ذكر أن الثعالبي توفرت فيه المعرفة بالكتاب والسنة، وجمع بين العلم والعمل، والسعي لمعرفة الله حق المعرفة عن طريق التأمل والنظر والتفكير في خلقه، وهو التقى والورع والمتجرد عن الهوى وحب الدنيا الذي ابتعد عن السياسة، ورفض التعاون مع "الظلمة"⁴.

ورغم أن الثعالبي ظهر في عصر ضعف وانحطاط، فلم يكن منعزلاً ولا متصوفاً تصوفاً سلبياً، بل كان يسعى لحماية أرض المسلمين بما توفر من وسائل، لهذا نجده يدعو أهل الجزائر وضواحيها للجهاد وتوفير أدوات الحرب، كما راسل سكان بجاية يحثهم على الاستعداد للحرب ومقاتلة الأعداء (الإسبان)، وحذر من مغبة التهالون في الجهاد⁵.

¹ نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، صص 167، 168، 169، كذلك عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء 2: من 1145هـ/1453م إلى 1554هـ/1542م، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص 360، كذلك أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، طبع ومراجعة: محمد بن شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص 206 و208. وأضاف الجيلالي أن ابن مرزوق الحفيد أثنى على الثعالبي بقوله: "سيدي وبركتي، الشيخ الإمام الفقيه المصنف الحاج العالم المشارك الخير الدين الأكمل أبي زيد عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي". أنظر الجيلالي: المرجع السابق، جزء 2، ص 361.

² نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص 171. وبرر نور الدين ذلك بأن المشيخة والقضاء موجود من يقوم بهما، فاختار الثعالبي أن يصلح بين الناس ويرشدهم للخير. أنظر نفسه.

³ الجيلالي: المرجع السابق، جزء 2، ص 362 و365.

⁴ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 1: 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 481، 482.

⁵ نفسه، جزء 1، ص 460. أنظر نص رسالة في الجهاد بعثها الثعالبي لسكان بجاية يحثهم على مقاومة "الكفار" في سعد الله: أبحاث وآراء، جزء 1، صص 346..349، طبعة 1978.

مؤلفات الثعالبي:

ترك الثعالبي حوالي تسعين مؤلفا بين رسائل وشروح وحواشي وتعليق وكتب مستقلة في الوعظ والرفائق والذكر والتفسير والفقه والحديث والسيرة والتوحيد واللغة والتراجم والتاريخ...¹ وذكر سعد الله أن الثعالبي ألف ما يقرب من الخمسة عشر مؤلفا في التفسير والمواعظ والتوحيد والفقه.² كما تنسب إليه كرامات ورسائل وإجازات، وأدعية وأذكار ومنامات.³

وهذه بعض مؤلفاته:

1/ في التفسير: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" طبع بالمطبعة الثعالبية في 1327هـ/1909م.

2/ في التراجم: "جامع الهمم في أخبار الأمم". لعله كتاب الجامع المخطوط بالخزانة الملكية بالرباط، رقم 3155.

3/ في الحديث: "غنية الواجد وبغية الطالب الملجد"، وهو فهرست جمع فيه أسانيده ومشيوخه. فقد كان الثعالبي من أبرز رواة الحديث، بل ومن مدرسيه، خاصة صحيح البخاري.

4/ "رياض الأنس في علم الدقائق وسير أهل الحقائق". مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط، رقم 2338.

5/ "جامع الأمهات لأحكام العبادات". مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 583.

6/ في الفقه: "روضة الأنوار ونزهة الأخيار"، وصفه التتبيكتي أنه "قدر المدونة، فيه لباب نحو ستين من أمهات الدواوين المعتمدة، وهو خزانة كتب لمن حصّله".

¹ الجيلالي: المرجع السابق، جزء 2، ص 363.

² سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 1، ص 91.

³ سعد الله: أبحاث وآراء، جزء 1، ص 203. أنظر عن الكرامات

- 7/ "الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة". مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط، رقم 7125.
- 8/ "الإرشاد في مصالح العباد".
- 9/ "رياض الصالحين". مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 592.
- 10/ في السيرة: "كتاب الأنوار في آيات ومعجزات النبي المختار". مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ق 583.
- 11/ "جامع الخيرات".
- 12/ "التقاط الدرر". مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 17551.
- 13/ "الأربعين حديثا في الوعظ والرقائق".
- 14/ "مصباح الظلام".
- 15/ "كتاب المرآي".
- 16/ "العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة". طبع بالمطبعة الحميدية بالقاهرة في 1317هـ/1899م.
- 17/ "الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز".
- 18/ "تعليق على المختصر الفقهي ابن الحاجب الفرعي". مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط، رقم 9728.
- 19/ "الدرر اللوامع في قراءة نافع".
- 20/ "الدرر الفائق المشتمل على أنواع الخيرات في الأذكار والدعوات". مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 622.
- 21/ "روضة الأنوار ونزهة الأخيار".
- 22/ "شرح مختصر خليل بن إسحاق المالكي".
- 23/ "إرشاد السالك".
- 24/ "نبذة من الكتاب المسمى بالجامع الكبير". طبع بالمطبعة الثعالبية بالجزائر في 1339هـ/1920م.

25/ "حقائق في التصوف". مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 14-17158¹.

وهذه النماذج من مؤلفات الثعالبي تبين جمعه بين علوم الشريعة (العلوم النقلية) وعلوم الحقيقة (علوم التصوف). وباعه ونفسه وقامته في العلمين.

تلاميذه:

لقد ترك الثعالبي تلاميذ اشتهر بعضهم في حياته، وآخرون اشتهروا بعد وفاته. فقد كان مدرسا ناجحا وعالما واثقا من رسالته، ومحدثا ومفسرا قويا، وذو شخصية جذابة ومهيمنة²، كما وصفه سعد الله. لهذا ترك تلاميذ درسوا عليه، وأنشروا بدورهم في المجتمع، وتركوا هم بدورهم تلاميذ. من تلاميذه:

❖ أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي (توفي 898/1493م):

وهو مؤلف "المنظومة الجزائرية" المشهورة في التوحيد، التي شرحها أكثر من واحد، وأشهر الشراح محمد بن يوسف السنوسي (توفي 895/1490م)، وهو أيضا من تلاميذ الثعالبي، شرح المنظومة الجزائرية في حياة المنظم³. تبدأ المنظومة بالبيت التالي:

الحمد لله وهو الواحد الأزلي	سبحانه جل عن شبه وعن مثل
فليس يحصي الذي أولاه من نعم	أجلها نعمة الإيمان بالرسول
من ذا من الخلق يُحصى شكر واهبها	لو كان يشكر طول الدهر لم يصل ⁴

¹ سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 1، ص 69، و 92. كذلك قسوم: المرجع السابق، ص 143، 144. كذلك الجيلالي: المرجع السابق، جزء 2، ص 363.

² سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 1، ص 92.

³ نفسه، جزء 1، 93. واللامية شرحها السنوسي في 241 ورقة، موجودة في الخزانة الملكية بالرباط، رقم 1676.

⁴ أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي: العقيدة الجزائرية، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس، رقم 4585. نسخ 1639/1049م، ورقة 1 ظهر.

رثى أحمد الجزائري شيخه وصديقه الثعالبي بقصيدة قوية تتأقلاها الرواة،
مطلعها:

قد جزعت نفسي لفقد أحبتي وحق لها من مثل ذلك تجزع
ألم بنا ما لا نطيق دفاعه وليس لأمر قدر الله مرجع
إلى أن يقول:

لقد بان أهل العلم عنا وأقفررت منازلهم إنا إلى الله نرجع
كما بان عنا شهمننا العالم الذي سناه بأنوار الحقيقة يسطع
أبو زيد المشهور بالعلم والتقوى له العلم فينا والمقام المرفع
هو العالم الموصوف بالنفع والورى به عنهم خطب الحوادث يرفع
إلى أن يقول معزيا محمد الكبير ابن الثعالبي:

أعزي أبا عبد الله محمدا ومن بجميل الصبر نرجو سيجمع
ونحن وإن جميعا نحبه فقلبك أشجى للفراق وأوجع
أصبنا به فالله يعظم أجرننا ويلهمنا الصبر الجميل ويوسع.¹

وقد اشتهر أحمد الجزائري لأنه كان تلميذ الشيخ الثعالبي، وزاويته اعتنى بها
العثمانيون، وأصبحت مدفنا لعدد من العلماء، مثل المفتي أحمد الزروق بن عمار
(كان متوليا للفتوى في 1028هـ/1619م) والمفتي سعيد قدورة (توفي
1066هـ/1656م)..²

❖ عيسى بن سلامة البسكري:

ألف "اللوامع والأسرار في منافع القرآن والأخبار" سنة 860هـ/1456م، وقد
نقل عن شيخه فيه.³ وصف شيخه في هذا المؤلف قائلا: "الشيخ الصالح الزاهد

¹ نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص 178، 179. كذلك الجيلالي: المرجع السابق، جزء
2، ص 365.

² سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 1، 93.

³ نفسه، جزء 1، ص 106.

العالم العارف أبو زيد عبد الرحمان الثعالبي... وهو من أكابر العلماء وله تأليف جمّة، وله على القرآن تفسير حسن وسماه بـ "الجواهر الحسان في تفسير القرآن". لقيته أنا وناولني كتاب الجواهر الحسان كاملا من عنده، من أوله إلى آخره، أعطاني نسخة من عنده لا بشراء ولا بعوض -عوضه الله في الجنة-¹.

❖ أحمد زروق البرنسي الفاسي (توفي 899/1494م):

إمام الطائفتين الصوفية والفقهاء، وصف شيخه الثعالبي بأنه "كان رأسا في العبادة، وغرة لامة في الزهد والعلم، وكانت الديانة أغلب عليه من علمه"². وقد عمل أحمد زروق على رفع العداء المصطنع بين الفقه والتصوف، والجمع بين الشريعة والحقيقة في إطار التلازم والتكامل المفيد للطريقة³.

❖ محمد بن عبد الكريم المغيلي (توفي 909/1504م):

وصفه التبكتي في نيل الابتهاج: "خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم، أخذ عن الإمام عبد الرحمان الثعالبي..⁴ بصورة خاصة علم التصوف⁵ ووصفه نور الدين عبد القادر بأنه "كان عالما جدليا نظارا له تصانيف كثيرة..⁶

❖ الرحالة عبد الباسط بن خليل (توفي 920/1514م):

هو من المشاركة (مصر) الذين أخذوا عن الثعالبي، وإن لم يطل جواره للشيخ، فقد أخذ عنه، وأجازه الثعالبي خلال رحلته. وقد حل بالجزائر 868/1464م.

¹ الجيلالي: المرجع السابق، جزء 2، ص 361.

² نفسه، جزء 2، ص 361.

³ عبد الله نجمي: التصوف والبداية بالمغرب طائفة العكاكزة القرن 16-17م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2000، ص 134.

⁴ ابن مريم: المصدر السابق، ص 258.

⁵ يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، جزء 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص 143.

⁶ نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص 170.

ألف "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم". يقول عبد الباسط: "... فدخلنا الجزائر وتبركت بسيدنا الشيخ الولي العالم العلامة الشهير الخطير الكبير سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وسمعنا شيئاً من فوائده، وسألته بعض أسئلة كانت تشكل علي فأفادنيها على أحسن وجه وأتمه، ورأيت تفسيره، وقرأت عليه من أوائله بعض السطور، وأجازني رحمه الله تعالى، ثم رحلنا من الجزائر".¹

وهؤلاء ليسوا سوى عينة من تلاميذ الثعالبي، وقد اخترقت شهرتهم الآفاق، وأثروا في المجتمع الجزائري والمغاربي؛ عقديا (أحمد بن عبد الله الجزائري)، واجتماعيا (أحمد زروق)، وسياسيا (المغيلي).

أثر الثعالبي ومكانته لدى الأجيال اللاحقة:

نشر الثعالبي دعوته عن طريق مؤلفاته التي انتقلت من جيل إلى جيل. وقد تفتنت الأجيال اللاحقة في نسخ مؤلفاته، وتواترت. فقد كانوا ينقلون مما تركه من مؤلفات، ويستشهدون به، ويذكرونه كلما حلوا بمدينة الجزائر، ويزورون ضريحه، ويرجون بركته. من هؤلاء:

الأكل (الأخضر) بن خلوف (توفي 1024هـ/1585م) الذي ذكره في قصيدته التاريخية عن واقعة مازجران بين الجزائريين والإسبان سنة 965هـ/1558م، وهي من الشعر الشعبي (باللغة الدارجة)، ذكر فيها الثعالبي الولي وزاويته.

قال: "... ويتفقوا على بلاد تسما باكرام، هديك زاويا في الزمان مذكرا فيها الولي المخصوص، يندكر بعلوم، جعلو الله عساس قبالت الكفرا، فيها ارجال الرضا أو ناس اكرام متفضلين بالجود..²

وكان لا يحل بمدينة الجزائر أحدا من الأعيان إلا وزار قبر الثعالبي، من ذلك علي التمجروتي (توفي 1003هـ/1594م)، سفير ملك المغرب الأقصى المنصور (توفي 1012هـ/1603م) للسلطان العثماني، وهو صاحب "النفحة المسكية في

¹ نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص 175.

² لخضر بن خلوف: صلوا على النبي وأرضوا على العشرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1636، قرص مرن رقم 44، ورقة 7 ظهر و8 وجه.

السفارة التركية، فقد ذكر في مؤلفه أنه زار "قبر الولي الصالح أبي العباس سيدي عبد الرحمان الثعالبي... وفيها غيرهم من الصالحين زرناهم وتبركنا بهم والحمد لله".¹

وقد أخذ عن الثعالبي التفسير (الجواهر الحسان) عيسى البطيوي (توفي بعد 1040هـ/1630م) مؤلف "مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح".²

كما تعرض محمد بن سليمان بن الصائم (توفي بعد 1068هـ/1657م) في مؤلفه "كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين" لرجال التصوف في الجزائر وعلى رأسهم الثعالبي، وفعل مثله مؤلف القصيدة التي قام بشرحها ابن سليمان، وهو موسى بن علي اللالتي (القرن 11هـ/17م). والقصيدة هي "حزب العارفين".³

كما ألف أحمد بن قاسم البوني (توفي 1140هـ/1727م) "نظم الجمان في مدح الشيخ سيدي عبد الرحمان" في الأدب، واختصر كتاب الثعالبي "العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة".⁴

وذكر أبو زيد عبد الرحمان الجامعي الفاسي (توفي 1144هـ/1734م) في رحلته، أنه عندما حل بمدينة الجزائر رأى على ظهر كتاب "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" للثعالبي "خطوط عاملين وصلحاء كاملين. كانوا في عصر الشيخ، وهم: العلامة سيدي أحمد بن عبد الله الزواوي، و.... كما رأيت خط الثعالبي

¹ أبو الحسن علي التمجروتي: كتاب النفحة المسكية في السفارة التركية، نقلا عن مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الطبعة 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 59، كذلك عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ المدن الثلاث الجزائر- المدينة- مليانة في موسمها الألفي: 360-1370هـ/1970-1971م، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص 152.

² سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 2، ص 123.

³ نفسه، جزء 2، ص 131، 132.

⁴ الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء 3: من 920هـ/1514م إلى 1246هـ/1830م، ص 181، 182.

بنفسه في مبيضة بتمامها في سفر ضخّم، وعلى ظهره أشهد على نفسه أنه حبسها على طلبة العلم، وكتب ذلك بخط يده سنة 835هـ/1432م¹.

وبقيت هذه نسخة من "الجواهر الحسان" المكتوبة بيد الشيخ وقفا على طلبة العلم بالجزائر. وقد ذكر الشيخ علي بن الحاج موسى (توفي 1327هـ/1909م) الذي كان وكيلا لضريح الثعالبي، في مؤلف له "معالي البشائر في ذكر بعض أسماء العلماء الأكابر، ممن كان معاصرا منهم للإمام الثعالبي بالجزائر"، ذكر أسماء العلماء الذين شهدوا على ذلك².

كما ذكر ابن ميمون (توفي بعد 1159هـ/1746م) في كتابه "التحفة المرضية..." أن مصطفى بن عبد الله الخطيب البوني الذي "لم يكن في عصره من حملة العلم وشيوخ الإفادة أقدم منه في الأدب، ولا أوسع صدرا بما يرجع لطريقته من فنون الطلب، قرئ(كذا) في حلقاته على سبيل التفقه تفسير الشيخ أبي زيد سيدي عبد الرحمان الثعالبي"³.

ونقل عن الثعالبي، أيضا، حمدان بن محمد بن الترجمان الجزائري (توفي 1185هـ/1771م) في مؤلف له عنوانه "رسالة في فضل الصلاة على النبي - ص -"، واصفا الثعالبي بـ: "الشيخ الإمام الفقيه المحدث أبو زيد عبد الرحمان الثعالبي رضي الله عنه في كتابه المسمى بجامع الخيرات، المصنف بقرب الساعة عن الشيخ أبي محمد جابر بن محمد القرطبي...". كما ذكر ابن الترجمان نقله من كتاب الثعالبي "النصائح" (كذا) في قول نقله الثعالبي عن ابن عباس⁴.

¹ أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، جزء 2، بحث وتقديم: محمد رؤوف القاسمي الحسني، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص 255.

² الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء 5: من 1253هـ/1837م إلى 1374هـ/1962م، ص 317.

³ محمد بن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الطبعة 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 235.

⁴ حمدان بن الترجمان: صلاة على النبي، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، غير مصور، رقم 2291، ورقة 37 ظهر، ورقة 44 وجه.

وقد ذكر الشاعر أبو عبد الله بن مسايب التلمساني (توفي 1190هـ/1776م) الثعالبي عند حديثه عن دخوله الجزائر في قصيدته "الورشان" (طائر) التي تحدث فيها عن رحلته للحج، قائلا:

قم كي تتحل البيبان	للجزائر داخل فرحان
زر سيدي عبد الرحمان	بركته ينفعنا بها
ليلة الجمعة اطلع للشيخ	ترسلك وإذا كنت صريح. ¹

كما ذكر الطبيب عبد الرزاق بن حمادوش (توفي حوالي 1199هـ/1785م) أن من عادة أهل الجزائر في ليلة القدر أن "يذهب الناس إلى خارج باب الواد، قبر سيدي عبد الرحمان الثعالبي، نفعا الله ببركاته، فيحضرون ختم البخاري أيضا، على هذه الصفة، ويتهيأون إلى العيد، وأنا حضرت، في الموضوعين، مع عامة المسلمين". وقد سبق كلام لابن حمادوش عن إحياء الليلة في الجامع الكبير.²

كما رثى الثعالبي القاضي محمد بن أحمد بن مالك (هاجر لتونس بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر)، ومدحه وأخلاقه، وبفضله أصبحت مدينة الجزائر مأوى الأولياء وموطن السعادة. وذكر مؤلفات الثعالبي وأسانيده وقدرته على رواية الحديث، ووصف ضريحه، ومقام الثعالبي في نفوس الناس، ثم مدح الرسول -ص-.³ وقد رثاه قائلا:

أيا جيرة حلوا بخير مقام	لكم قد سما قلبي وطاب مقامي
إلى أن يقول:	

¹ الجيلالي: تاريخ المدن الثلاث، ص 155، 156، كذلك ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 411. كذلك Ben Cheneb : Itinéraire de Tlemcen a la Mekke par Ben Messaib (18^{ème} siècle), in Revue Africaine, N° 44, 1900, O.P.U, Alger, 1985, p 277.

² عبد الرزاق بن حمادوش: رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال، تقديم تحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص 126، وسعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 1، ص 92.

³ سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 2: 1500-1830، ص 281.

وما صبوتي فيمن رأوه حقيقة
ولكنني أصبو لحب إمام
أبو زيد القطب الأجل الثعالبي
إمام الورى طرا بكل مقام
واستمر مادحا الثعالبي:

هنيئاً وبشرى للجزائر إذ غدت	به مقصدا شوقا لأهل الفرام
ويا ربح من حل السداد لقلبه	وزار على الإيصال خير الأنام
يصافحه التوفيق من كل وجهة	ويحظى بتقوى الله زاد الكرام
لقد ضم أسراراً وعلماً وحكمة	وراوحه الرضوان طول الدوام
أبو زيد الأرضي الأبر الثعالبي	إمام الهدى بحر النداء المتطام
لقد أودع الله الجزائر رحمة	وعمت بها النهى بغوث همام
به أشرقت أنوار صدري وأورقت	غصون مناي في رياض إكرام
فحبكم ذخري وكنزي ومقصدي	ومدحكم قوتي ونور ظلامي
إلهي بقطب الأولياء الثعالبي	أجب دعوتي وأمن بكل مرام ¹

وهذه النماذج ليست سوى عينة من المكانة التي تمتعت بها شخصية الثعالبي، في الجزائر وخارجها خلال العهد العثماني، سواء عن طريق العلم الذي تركه في مؤلفاته والذي نهل منه كثير من العلماء، أو عن طريق الاحترام الذي كنه له سكان الجزائر أو البلاد المجاورة.

الزاوية الثعالبية:

لأن شخصية الثعالبي كانت ذاتعة الصيت، فإن زاويته حيث ضريحه كانت هي الأخرى مشهورة، يقصدها سكان مدينة الجزائر، وكل من يرد على المدينة من غير سكانها، رغم أنها كانت بالمدينة وليس بالريف، الذي شغلت فيه مؤسسة الزاوية حيزاً كبيراً في حياة سكانه.²

¹ الحفناوي: المرجع السابق، جزء 2، ص 76، 77 و 79، 80.

² أنظر عن الزاوية ودورها في العهد العثماني، صباح بعارسية: حركة التصوف في الجزائر خلال القرن 16/10م، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2006، الفصل الثاني، المبحث الثاني.

ولا يختلف اثنان أن الزوايا شغلت مكانة عظيمة في الجزائر خلال الوجود العثماني، فقد كانت المسجد والملجأ والمأوى والمزار، الأمر الذي جعلها محور الحياة الروحية والثقافية وحتى الاجتماعية، في الوسط الريفي أكثر منه في الوسط البدوي¹، أين نشرت التصوف. ولأن الزوايا أيضا سمحت بتعليم الجميع فقد زاحمت الجامعات²، لكن زاوية عبد الرحمان الثعالبي، التي أصبحت في العهد العثماني مقصد الزوار ومحط رحال طلبة العلم، ومقصد طلاب البركة والشفاء، بل وأصبحت عبارة الثعالبة تدل على مدرسة في الزهد والورع والميل للعزلة والتصوف والعناية بعلوم الآخرة هروبا من الدنيا³. رغم أن زاوية الثعالبي لم تتبع أي طريقة صوفية ولم تكن بالريف، وإن قيل أن الثعالبي كان شاذليا، فقد اشتهرت لاشتهار المدفون فيها، علما أن شهرة الزاوية في العهد العثماني بالجزائر كانت تنسب لشهرة الطريقة الصوفية، ولكثرة أتباعها.

وذكر جورج مارسيه Marçais أن شخصية الثعالبي كلما تقادمت كلما زاد احترام الناس لها، لهذا في 1020هـ/1611م قرر سكان مدينة الجزائر إقامة ضريح له⁴. ولا تزال هذه الزاوية كما أشار الجيلالي، "محط رجال العلم وموئل القصاد وملجأ العجزة"⁵. ولغاية سنة 1246هـ/1830م بقيت زاوية الثعالبي أهم زاوية في مدينة الجزائر من حيث مداخيلها، ومن حيث شهرة الثعالبي الذي أسست تكريما له. وهي تقع أعلى حديقة مارينقو (حديقة براغ حاليا) أعلى باب الوادي، كما

¹ ناصر الدين سعيديوني: مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية (نموذج بلاد القبائل)، عمل نشر في: International congress on learning and education in the Ottoman world, Istanbul, 412-15, April, 1999, p

وانتشار الزاوية في الوسط الريفي أكثر منه في الوسط البدوي راجع لأن البدو الرحل لا يمكنهم نقل ضريح المرابط، الذي كان مقره في الزاوية، كلما ارتحلوا، أنظر

Edmond Doutté: L'Islam algérien en l'an 1900, Giralt imprimeur-photographeur, Alger, 1900, p 41.

² Alfred Bel: La religion musulmane en Berbérie, esquisse d'histoire et de sociologie, Tome I: Etablissement et développement de L'Islam en Berbérie du VII^e an XX^e siècle, librairie orientaliste, Paul Geuthner, Paris, 1938, P 365.

³ سعد لله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 1، ص 92. 93.

⁴ الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء 4: من 1246هـ/1830م إلى 1253هـ/1837م، ص 360.

⁵ Klein: Op.Cit, tome 2, p 157.

ذكر أوميرا Aumerat ، وكانت تغطي مساحة 1400 متر مربع، وحوّت على جامع صغير بمئذنة مربعة الشكل، وقبة بها قبر الثعالبي وبعض القبور، وعدة محلات وبنيات للعيش والخدمة، وميضات.¹

وقد ساندت السلطة العثمانية في الجزائر، طيلة ثلاثة قرون ونيف، زاوية الثعالبي لكونها بعاصمة الدولة، ولكون الثعالبي نفسه من أبناء المنطقة.² ذلك أن هذه الزاوية أدت دورا اجتماعيا، فقد كان الناس يعتقدون في بركة ضريح المرابط، وكانت النساء تلجأن لضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي ليدعو لهن الله بإرجاع أزواجهن سالمين من البحر. وذلك بتقديم المال والهدايا للضريح³ بنية التصديق، وهي عادة كانت سائدة في الجزائر وفي العالم الإسلامي، وما هذا سوى اعتقاد في صلاح المقبور، والدعاء بجاه الأولياء والصلحاء جائز عند بعض العلماء لأن شفاعتهم مقبولة، وجاههم عند الله عظيم، ف"لا يكاد يُستشفع بجاههم أحد ويخيب".⁴

ورغم أن أشهر الزوايا كانت تابعة لطريقة صوفية معينة، فإن زاوية الثعالبي بمدينة الجزائر لم تكن تابعة لأي طريقة صوفية، إذ لم تكن الزاوية مقرا لأي طريقة صوفية، وكان مقرها ضريح الولي، أين تتعقد الحضرة. وقداسة الضريح لا تعود فقط لاهتمام باشاوات الجزائر بالضريح، بل لكثرة زواره؛ من مظلومين، ونساء باحثات عن مساعدة على متاعب الحياة، وكذلك لوفرة الهدايا للضريح، ورغبة الناس في دفنهم بالزاوية.⁵ وكان ريع أحباس الزاوية والصدقات يُصرف في إطعام الفقراء والمساكين كل ليلة جمعة وفي المواسم، وأيضا لصيانة المسجد، ولدفع أجور الإمام والحزابين...⁶

¹ Aumerat.M.M : La propriété urbaine à Alger, in Revue Africaine, 1898, O.P.U, Alger, 1985, p 192 et 187.

² سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 1، ص 93.

³ R.P.Dan : Histoire de Barbarie et ses corsaires, des royaumes et des villes d'Alger, de Tunis, de Salé et de Tripoli, 2^{ème} édition revue et augmentée par le même auteur, Pierre Rocalet imprimeur et libraire, Paris, 1648 , P 286 et 30.

⁴ محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني: كتاب سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس. جزء 1، د. دار نشر، د. بلد، 1316هـ/1898م، (طبعة حجرية). ص 23.

⁵ Klein : Op.cit, tome 2, p 161, 162.

⁶ سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 5، ص 122.

كما تميزت زاوية الثعالبي، على غرار الزوايا الأخرى، كونها ملجأً للهاربين من العقاب والقتل مهما كانت جرائمهم، فقد اعتقد الحكام والعامّة في حصانة حمى الزاوية والضريح، فلا يلحق أحد بالهارب للزاوية، سواء من الحكام أو من العامّة.¹

كما نقلت رفاة أولياء، بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، لتدفن بالقرب من ضريح الثعالبي بعد أن هدمت إدارة الاحتلال أضرحتهم، من هؤلاء: الولي دادة (توفي 961هـ/1554م)، نقلت رفاة في 1280هـ/1864م، وهو الذي تتسب له هزيمة شارلكان في 947هـ/1541م. كذلك الولي سيدي منصور بن محمد بن سليم (توفي 1054هـ/1644م) نقلت رفاة في 1262هـ/1846م، وقد كان سيدي منصور من تلاميذ زروق، أحد تلامذة الثعالبي.²

لقد أُلحقت، بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، زاوية الثعالبي بأُملاك الدولة (الدومين) سنة 1264هـ/1848م، وأُدمجت مصاريف موظفيها وصيانتها في ميزانية الإدارة المدنية. وتم تهديم الجامع مع المدرسة التابعين لزاوية الثعالبي سنة 1275هـ/1859م.³ وهذا الإلحاق حرم وكيل الزاوية من دخل كان قاراً، حيث ذكر سعد الله أن وكيل الضريح أحمد بن محمد أصبح، بعد ضم زاوية الثعالبي "للدومين"، يعاني الفقر والحاجة، واشتكى أمره للحاكم العام بعد أن رفض الدومين منحه راتبه، وكتب: "فضاق علي الحال، ولم يمكني إلا أن نشتكى حالي إليك، لأنني لم أقبض شهرتي ثلاثة أشهر".⁴

وربما تحسنت حال من خلف هذا الوكيل، فقد أسندت نقابة الزاوية للشيخ علي بن الحاج موسى المذكور أعلاه، الذي قال فيه محمد فريد، رئيس الحزب الوطني بمصر، عندما حل بالجزائر سنة 1319هـ/1901م: "وناظر هذا الضريح (ضريح

¹ نفس المرجع، جزء 1، ص 271. طبعاً هناك استثناءات، لكنها بقيت نادرة جداً. أنظر Fray Diégo de Haëdo : Histoire des rois d'Alger, traduite et annotée par H. D. DE Grammont, in Revue Africaine, N°24, 1880, OPU, Alger, 1986, p 116.

² Klein: Op.Cit, tome 2, p 12 et 163.

³ Aumerat : Op.Cit, p 187.

⁴ سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 5، ص 122.

الثعالبي) شيخ جليل عالم متفقه لديه خزانة كتب نفيسة، وبارع في النظم والنثر، وله قصائد جليلة على ما أخبرت¹.

وبهذا شغلت زاوية الثعالبي في العهد العثماني مكانة كبيرة لدى الجزائريين بما كانت تقدمه من خدمات لزوار الضريح، سواء المادية منها أو المعنوية؛ فقد كانت تأوي الزوار من غير سكان المدينة، وكانت تخفف على الفقراء والمساكين، وكان الضريح حُرما لا يجزؤ أحدا على انتهاكه. وبهذا خففت هذه الزاوية على قاصديها الإحساس بمتاعب الحياة، فقد كان الدعاء عند ضريح الزاوية عنصر للتفاؤل بالمستقبل في زمن شاعت فيه الأوبئة وحملات أوروبا على مدينة الجزائر.

مكانة شخصية الثعالبي لدى الحكام العثمانيين:

لقد اهتم حكام الجزائر العثمانيين بالأضرحة، وربما كان على رأس هذه الأضرحة ضريح عبد الرحمان الثعالبي، فهو الذي جعل الجزائر مشهورة في المشرق والمغرب، ومعروف أن هذا الاهتمام كان ضمن سياسة العثمانيين القائمة على احترام أولئك الذين اعترف لهم الناس بولايتهم وإرشادهم. وبرزت مهارة العثمانيين عندما أخذوا على عاتقهم شعائر الاحتفال بالولي²، والنماذج التالية تؤكد ذلك:

عمل عروج برباروسا (قتل 1518/924م) على كسب مساعدة معنوية من السلطات الدينية في مدينة الجزائر، رغم أنه قتل سليما التومي (قتل 1516/922م)، عندما أراد استعادة نفوذه على المدينة الجزائر³، لكن المرجح أنه تصالح مع عائلة التومي بتدخل من خليفة الولي سيدي عبد الرحمان الثعالبي⁴، لأن

¹ الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء 5، ص 313.

² Op.cit, tome 2, p 161 : E.Klein.

³ سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 1، ص 211.

⁴ كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510م-1541م، ترجمة: جمال

حامدة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص32، كذلك

Les époques militaires de la grande Kabylie, Bastide libraire- A.Berberger :
P 53. éditeur, Alger, 1857,

الحقد ضد المسيحي أضحى نقطة تفاهم وتلاق بين الطرفين¹، وذلك بعد تعرض مدينة الجزائر لحملة إسبانية.

كما نجد العالم أبو مهدي عيسى الثعالبي (توفي 1080هـ/1669م) وهو من عائلة الثعالبي، يؤيد حكام الجزائر العثمانيين ضد ابن الصخري (1046هـ/1637م)²، الذي ثار على باي الشرق الجزائري. وهذا الموقف طبيعي، وهو نتيجة لموقف حكام الجزائر العثمانيين من عائلة الثعالبي، ومن شخصية الثعالبي نفسه.

وإذا ما بحثنا في أسباب ذلك نجد أن العثمانيين كان لهم اعتقاد قوي في الأولياء³، فبحارة مدينة الجزائر، كانوا يقصدون، قبل خروجهم للبحر، الأولياء لنيل بركاتهم. ويطلقون من البحر عند ذهابهم وإيابهم طلقات مدفعية معينة، احتراماً لهم. وإذا لجأ أحد المجرمين إلى قبة أو ضريح فإن الملاحقين له يتوقفون عند مدخل الضريح. مهما كانت الجرائم التي ارتكبها اللاجئ للزاوية. فقد كان الحكام والعامّة يعتقدون في حرمة حمى الزاوية، ووقعت حوادث فرار كثيرة إلى زاوية الثعالبي، وغيرها بمدينة الجزائر وما جاورها. سواء من الولاة أنفسهم أو من العامة. وهذا يدخل ضمن عقيدة الناس في صلاح الأولياء وقدرتهم على التفاهم

¹ H.D.De Grammont : Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), Ernest Leroux éditeur, Paris, 1887, P 412, et A.Cour : L 'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la régence d'Alger (1509-1830), Leroux éditions, Paris , 1904, P 94.

² اشتهر برواية الحديث ووفرة العلوم والذكاء والدرس المهّاب. ترك (كنز الرواة) الذي ترجم فيه لشيخه من المغاربة والمشاركة. وصفه العياشي بأنه (سلك فيه مسلكا عجيبا ورتبه ترتيبا غريبا جمع فيه من غرائب الفوائد شيئا كثيرا...). كما ترك (رجز في مضاعفة ثواب هذه الأمة). أنظر سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 2، ص 52، 53 و 57.

³ لأن آسيا الصغرى، موطن العثمانيين، تعتبر موطن الحماسة الصوفية، ولا تتم حرب بدون الدين. أنظر

F.Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe 2, tome 2, 2^{ème} édition revue et corrigée, Armond Collin, Paris, 1966, P 11.

وتسليط غضبهم على من يهين حماهم¹. لهذا كان سكان مدينة الجزائر يقسمون اليمين أمام ضريح الثعالبي بحضور القاضي لتأكيد صدق شهادتهم².

لقد كانت زاوية الثعالبي ملجأ لبعض حكام الجزائر العثمانيين عند المحنة، من ذلك لجوء الباشا محمد بورصالي (1051-1054هـ/1642-1645م) إلى زاوية الثعالبي خوفاً من الرئيس علي بتشين (حكم مدة قصيرة 1054هـ/1645م) وأهل الجزائر، لكن علي بتشين حضر بنفسه للزاوية وأمنهم وأخرجهم منها³. ومن الأمثلة كذلك فرار حاج السعدي المزور المعزول، في 1244هـ/1829م، إلى ضريح الشيخ الثعالبي، وكاعتراف منه بالجميل أعتق كل عبده السود⁴.

كما بنى أحمد العلي عطشى باشا (1106-1109هـ/1695-1698م) ضريح الثعالبي في 1108هـ/1696م. ورُممت وجُددت قبة الضريح في 1142هـ/1720م، وزاد عبيد باشا (1136-1144هـ/1724-1732م) في عمارته سنة 1142هـ/1730م⁵.

كما دُفن كثير من الباشاوات قرب ضريح الثعالبي، من ذلك قبر خضر باشا، الذي قال عنه الجيلالي أنه مازال "ظاهراً معروفاً بمقبرة سيدي عبد الرحمان الثعالبي بالعاصمة، منقوش على شاهده تاريخ وفاته... متمم سنة 1013هـ/1605م"⁶، ومثل أحمد العلي عطشى باشا (1106-1109هـ/1695-1698م) الذي قتل ودفن يمين الداخل لقبة الثعالبي، وإبراهيم باشا (1122هـ/1710م)⁷. كذلك مصطفى باشا (1798-1805م) وابنه إبراهيم المتوفي في 1818م (عمر باشا حكم بين 1815-1817م). وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر دفن أحمد باي الشرق

¹ سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 1، ص 496، و 271.

² Klein : Op.Cit, tome 2, p 14.

³ الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء 3: 920/1514م إلى 1216هـ/1830م، ص 139.

⁴ Klein : Op.Cit, tome 2, p 14.

⁵ Devoulx fils : Les édifices religieux de l'ancien Alger, in Revue Africaine, 1863, O.P.U, Alger, 1985, p 169 et 162, et Klein : Op.Cit, tome 2, p 13 et 162.

⁶ الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء 3، ص 120.

⁷ حسين بن رجب شاوش بن المفتي: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمعها واعتنى بها: فارس كعوان، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، دت، ص 32.

(1267هـ/1851م) بمقبرة الثعالبي، ومحمد بن شنب الذي وصفه جورج مارسليه بأنه كان رجلا مطالعا ومستقيما وخدموا.¹

كما عمل الحكام العثمانيون في المدن على اتباع سياسة ترمي إلى جذب وربط سكان الريف بمرابطي المدن، وذلك باحترام وصيانة أضرحة المدن والفحوص، وتحبيس الأحباس عليها؛ وخير مثال على ذلك ضريح الثعالبي بمدينة الجزائر.² الذي كان يقصده الزوار من الريف.

الأوقاف والأعطيات:

لهذه المكانة التي أولاهها الحكام لشخصية الثعالبي، ولحرمة زاويته وضريحه، ولإيمان الناس ببركة الولي، فقد حبس كثير من الجزائريين ومن الحكام العثمانيين أملاكهم على زاوية الثعالبي، كما خصص له الحكام أعطيات في عدة مناسبات.

وربما أول وقف لصالح شخص الثعالبي هو زاوية موقوفة عليه ببورصة؛ فخلال رحلته للحج، وبعد إقامته بمصر سنة (1417هـ/1414م) ارتحل لبورصة، وهناك أقيمت له زاوية، وهي موقوفة ومحبسة عليه إلى "الآن".³

أما في الجزائر فمعظم الأوقاف كانت تذهب للزوايا والجوامع، وكان على رأسها في مدينة الجزائر ضريح الثعالبي، سواء من العامة أو من الحكام، من ذلك: وقف يعود لسنة 1066هـ/1656م، عبارة عن محل غير بعيد عن باب الوادي، عائداته حُبست لإيواء زوار الضريح من خارج المدينة، لأن كثير من الزوار كانوا من خارج مدينة الجزائر، وخاصة من الريف، وغالبيتهم كانوا لا يملكون المال للنوم بالفندق. كذلك وقف آخر يعود لسنة 1072هـ/1662م خصص لصيانة الضريح.⁴

¹ Klein : Op.Cit, tome 2, p 162, 163.

² N.Saidouni : L'Algérois rural a la fin de l'époque ottomane (1791-1830), Dar-Al-Gharb-Al-islami, Beirut, 2001, p 398.

³ الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء 2، ص 360.

⁴ Klein : Op.Cit, tome 2, p 161.

كما أوقفت السيدة دومة بنت محمد، في 1240هـ/1825م، أواني لاستعمالها في طبخ الأكل المتصدق به، وزادت لذلك وقف إصلاح هذه الأواني من محل تملكه.¹ وأوقف الداوي أحمد باشا (1219-1223هـ/1805-1808م) دارا اشتراها، بجوار ضريح الثعالبي، على الأوجاق.²

كما منح حكام الجزائر العثمانيين جزءا من مداخل الغزو البحري (القرصنة) لضريح الثعالبي، وكان تقسيم الأعطيات يتم يوم المولد النبوي.³ وقد ذكر كلين، رئيس جمعية الجزائر العتيقة، أن أوقاف أو الأملاك المحبسة على زاوية الثعالبي وصلت لتسع وستين عقارا، كانت تدر سنويا حوالي 6000 فرنك.⁴ وذكر نور الدين عبد القادر أنه كان بجوار زاوية الجامع الكبير مسجد صغير عُرف بجامع سيدي عبد الرحمان الثعالبي لا يُعرف عنه شيئا،⁵ وربما كان هذا المسجد وقفا على الثعالبي.

ورغم ما حاق الأوقاف خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر، فإننا نجد الحاج عبد الرحمان القينعي (توفي 1284هـ/1868م) وهو "المحسن الكبير"، يوقف شطرا من أحباسه على قراء حزب القرآن الكريم بضريح الثعالبي في كل ليلة جمعة.⁶ يمكن القول انطلاقا من هذه النماذج أن الأوقاف المحبسة على زاوية الثعالبي، بما فيها الضريح والجامع والمدرسة، كانت تدر على الزاوية أموالا كثيرة، استغلت في خدمة الزوار وصيانة المكان، وكانت هذه المداخل وقفا يستحيل مصادرته لاعتبارات فقهية، لكن إدارة الاحتلال ضربت عرض الحائط هذه الاعتبارات وصادرت المداخل والأوقاف حتى اقتقر وكيل الزاوية.

¹ Klein : Op.Cit, tome 2, p 14.

² وثائق أحكام قضائية، بالمكتبة الوطنية الجزائر، مجموعة 3205، الملف 2، وثيقة 9. أنظرها ص 15.

³ P.Boyer : Contribution a l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger (16^{ème}-19^{ème} siècles), 1^{er} trimestre 1966, N° 1, publié avec le concours du CNRS, Aix-en-Provence, p 81.

⁴ H.Klein: Op.Cit, tome 2, p 14.

⁵ نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص 161.

⁶ الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء 5، ص 375.

دعاء منسوب للثعالبي في إهلاك الظالم:

وهو دعاء ربما كان أهل الجزائر يدعون به خلال العهد العثماني، عندما تعوزهم القوة، والراجح أنه منسوب للثعالبي فقط وليس من الأدعية التي كان يتوجه بها لخالفه، إذ ليس من شيم الشيخ الثعالبي الدعاء على المسلم بالشر. وكيفية الدعاء كالتالي:

بعد صلاة ليلة الجمعة ركعتين بفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص إحدى عشر مرة، والنوم في مكان طاهر، يقرأ الداعي عند النوم الآيات: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً (سورة الكهف الآية 107)، ويزيد: "اللهم أيقضني في ساعة الإجابة". فإذا استيقظ الداعي، يسبغ الوضوء ويصلي النوافل، فإذا سلم، يرفع يديه للسماء ويقول: "اللهم يا غايه المستغيثين ويا غايه الملهوفين، ومن يرى ولا يرى، ويا أرحم الراحمين، يا رب العالمين، اللهم ليس في السماء دورات، ولا في الأرض غمرات، ولا في الجبال مدرات، ولا في الأشجار ورقات، ولا في النفوس لحظات، إلا وهي عارفة بذلك شاهدة، وفي ملكك متحيرة، أسألك يا رب ويا سيدي ويا مولاي أن تقصم فلان بن فلانة قصما لا يرجه منه إلى الدنيا أبداً، وأبله بلية في جسده لا يقدر عليها، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، فأنت نعم المولى ونعم النصير، وبجاه دعاء عيسى عليه السلام أن تقضي حاجتي في هذا الطاغى يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين، يا قديم يا دائم يا فرد يا وتر، ويا أحد يا صمد يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، ويا الجلال والإكرام، اقضي حاجتي وبلغ مرادي، إنك على كل شيء قدير". يجب قراءة هذا الدعاء ثلاث مرات، والصلاة على النبي - ص - مائة مرة، ثم "لا يقوم الداعي من مكانه حتى تُقضى حاجته".⁸²

دعاء للثعالبي موجود في بعض مؤلفاته:

الظاهر أن دعاء الثعالبي هذا هو الأصل للدعاء السابق، الذي ربما لعبت به يد النساخ والرواة، لأنه يطلب فيه من كل من قاله أن لا يكون الدعاء بالشر على أي مسلم.

ذكر أنه جاء في الصحيح أن في الليل ساعة مستجابة الدعوة فيها، ولمعرفة هذه الساعة على الداعي أن يقرأ عند نومه الآية "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات" (الآية 107 من سورة الكهف) إلى الآخر، فإنه سوف يستيقظ في الساعة المرجوة. "وهذا مما ألهمت، وما كتبته إلا بعد استخارة. وإياك أن تدعو فيه على مسلم، وإن ظالما، وإلا فالله حسيبك، وأنا بين يديه خصيمك".¹

* * *

يمكن القول في الختام أن شخصية الثعالبي تمتعت خلال العهد العثماني بالجزائر بمكانة كبيرة، سواء من طرف العامة أو الخاصة أو الحكام؛ فالعامة قصدوا ضريح الثعالبي أملا في التخفيف من متاعب الحياة، والخاصة كانت تقصد زاويته وضريحه للزيارة ولنهل العلم، والحكام، وإن كان من وراء موقفهم من ضريح وزاوية الثعالبي حسابات سياسية، فإن العثمانيين أقاموا دولتهم بمساعدة قوية من رجال الدين، أو بالأحرى بمساعدة الطريقة البكداشية التي اعتنقها جنود الإنكشارية، ما يعني أن موقف الحكام من القوى الدينية لم يكن فقط لحسابات سياسية، بل يدخل فيه الإيمان بصلاح الشيخ الثعالبي، لهذا كانت زاويته حرما لم ينتهكه حكام الجزائر العثمانيين. وهذا الاحترام يعود لشخص الثعالبي نفسه الذي اتسمت حياته الطويلة بالزهد والصلاح والإنتاج الفكري، الذي تناقله تلاميذه ثم تلاميذهم، وانتشر فكره بفعل النساخ والرواة حتى أصبح اسمه مشهورا في الآفاق، وزار ضريحه القاضي والداني. وإن كانت زاوية الثعالبي عانت بعد مصادرة أوقافها من طرف إدارة الاحتلال الفرنسي، فالمدرسة الثعالبية التي تأسست بجانب الزاوية حافظت على إرث الأجداد.

¹ الحفناوي: المرجع السابق، جزء 1، ص 76، 77.

